المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - جمهورية العراق

المجلد الثامن والعشرون - العدد الاول - ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

رئيس التحرير

الدكتور محمد عبد المطلب البكاء

الهيئة الاستشارية

الاستاذ هلال ناجي

ا . د . سامي مكي العاني

ا . د . محمود عبدالله الجادر

ا . د . عماد عبدالسلام رؤوف

الاستاذ اسامة النقشبندي

مدير التحرير

د. هدى شوكت بهنام

سكرتير التحرير

د.مي فاضل الجبوري

التصميم والاخراج الفني :

جنان عدنان

- عنوان المراسلة
- دار الشؤون الثقافية العامة- الاعظمية
- ص.ب ٤٠٣٢ - بغداد
- جمهورية العراق

في هذا العدد

درس المصطلح النحوي في كتاب سيبويه اعتماداً على الجمع والاحصاء بدون الغوص في معاني المصطلح وما لها من مدلولات عميقة الصلة بالنظريات النحوية عند سيبويه ... لذا فإن هذه الدراسة تعالج أهم معاني مادة (جوز) بالاعتماد على السياق اللغوي مع التوسع في تحليل الدلالة النحوية . « الجائز في كتاب سيبويه - مدخل لدراسة المصطلح النحوي ومعانيه » ص ٤ - ١١ .

المَوْصِل : (بالفتح وكسر الصاد) مدينة عتيقة ضخمة عليها سوران وثيقان ، وباطن الداخل منهما بيوت بعضها على بعض مستديرة بجدارها المطيف بالبلد كله ، وهي من المرافق الحربية ، وفي اعلى البلد قلعة عظيمة عليها سور وشرفات البنية ، مشيد البروج ، وتقع (الموصل) على طرف دجلة ، ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى .

ملف العدد : (المَوْصِل) ذاكرة الامكنة ص ٤٥ - ٩٠ .

شهد القرنان الثالث والرابع للهجرة حركة بلاغية ونقدية واسعة ، وكان من اعلام هذه الحركة ابن طباطبا العلوي الشاعر والمؤلف . ومن كتبه « عيار الشعر » الذي بحث فيه كثيراً من القضايا النقدية ، ولم يلتفت الى هذا الكتاب احد قبل ان يحققه د . طه الحاجري و د . محمد زغلول سلام ، ويخرجاه مطبوعاً سنة ١٩٥٦ وبذلك اضافا مصدراً جديداً الى مصادر الدراسات البلاغية والنقدية .

ثم اصدرت دار الكتب العلمية البيروتية (١٩٨٢) طبعة نسخت فيها تحقيق د . محمد زغلول سلام . وهذه الحالة دفعت د . عبد العزيز المانع الى ان يصدر طبعة محققة تحقيقاً جديداً مستنداً الى قراءة صحيحة للمخطوطة الوحيدة التي اعتمد عليها المحققان الاولان .

« عيار الشعر في تحقيقين » ص ١٠٩ - ١٢٠ .

المحرر

اسعار : العراق : ٢٠٠ دينار ، الأردن : دينارات ، الامارات : ٣٠ درهماً ، اليمن : ٣٠ ريالاً ، مصر : ٣ جنيهات ، ليبيا : ٣ دنانير ، الجزائر : ٦٠ ديناراً ، تونس : دينارات ، المغرب : ٣٠ درهماً

ثمن المشاركة السنوي : ٥٥ دولاراً عربية ٨٠ دولار دول العالم الاخرى

www.dorat-ghawas.com

الموصل في كتابات الرحالة في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد

أ.د. علي شاكر علي
كلية الاداب ـ جامعة الموصل

١ ـ المقدمـــة :

تعد شهادات المؤرخين والبلدانيين ذات اهمية بالغة في تدوين تاريخ المدن ، غير ان عي الباحث عدم اغفال شهادات الرحالة الذين يتركون ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن المدن اثناء مرورهم بها ، وبقدر تعلق الامر بمدينة الموصل وانطباعات الرحالة عنها ، فان المتتبع لكتابات الرحالة الذين قصدوا الموصل ولاعتبارات شتى ـ منذ العصور الوسطى حتى مطلع القرن الحالي ، يمكننا تصنيف هؤلاء وحسب التسلسل الزمني الى ثلاث فترات : ـ

الفترة الاولى التي اطلق عليها فترة الرحالة الكبار ، والتي تمتد من العصور الوسطى حتى افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ م ، وكانت الموصل خلال هذه الفترة نقطة مرور اجبارية تقريباً لجميع الرحالة الذين يقصدون الشرق الاقصى .

أما الفترة الثانية ، فهي تبدأ قبل انتهاء الفترة الاولى وتعرف بفترة البعثات الاثارية ، وكانت نينوى والمواقع الآشورية الاخرى ، هي الهدف المنشود ، اذ قصد الموصل عدد من الرحالة اما بهدف الاطلاع على تاريخ المدينة قبل الاسلام او الاقامة بها للقيام بعمليات التنقيب فيها .

وفي نهاية القرن التاسع عشر بدأت الفترة الثالثة ، اذ زارت الموصل البعثات الرسمية والرحالة من السواح والمغامرين الذين اتخذوا من السفر وسيلة للوقوف على الاوضاع في العالم[١] . ودراستنا هذه تركز على الرحالة في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد ، ومعظم هؤلاء الرحالة قصدوا المدينة لغايات تبشيرية ، لذا جاءت معلوماتهم عنها تقتصر على تشخيص احوال الطوائف غير المسلمة في المدينة . وهذا الامر ينطبق على الرحالة الاوربيين ، في حين كان الهم الاول للرحالة العثمانيين ، هو تسجيل معلومات جغرافية ـ تاريخية عن المدينة لا تخلو من فائدة تاريخية .

وغاية ما ترجوه هذه الدراسة . ان تكون قد وفقت في متابعة كتابات الرحالة عن مدينة ـ كانت هدفاً لاكثر من جهة غازية ، جاءتها وهي راغبة في خيراتها او مدركة لاهميتها الجيو ـ ستراتجية ، غير انها دافعت عن كيانها بكل الوسائل ، فذهب الغزاة ، وبقيت المدينة ، وفي كل زاوية منها قصة غدر او ثار او دمار ، جعلها مدينة بائسة صغيرة لا يتعدى حكم ولاتها اسوارها ، والله الموفق ومنه الرشاد والسداد .

www.dorat-ghawas.com

٢ ـ الاوضاع العامة في الموصل ١٥١٦ ـ ١٦٢٣ م :

دخلت الموصل في السيطرة العثمانية في اعقاب معركة قره غين دهده ١٥١٦ م غير ان الاوضاع العامة في المدينة لم تستقر بسبب استمرار الصراع العثماني ـ الفارسي حتى حسمت حملة السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) على بغداد سنة ١٥٣٤ م حيث وضعت نهاية للوجود الصفوي في العراق[٢] ، وبدأت التنظيمات الادارية العثمانية تأخذ طريقها الى التطبيق في المدن العراقية ومنها الموصل التي نهضت كولاية مستقلة اعتباراً من سنة ١٥٣٩ م حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر حيث خضعت لولاية بغداد حتى سنة ١٥٧٥ م اذ استعادت مكانتها الادارية كولاية قائمة بذاتها[٣] خلال النصف الاول من القرن السادس عشر ، اشرت القيادة العثمانية اهمية الموصل الاستراتيجية فاصبحت قاعدة عسكرية للحملات التي ارسلت الى جهات اذربيجان[٤] ومن جهة اخرى فان اندماج اقتصاد المدينة بالاقتصاد العثماني العام ، قد نشط العملية الاقتصادية فيها الامر الذي شكل اساساً للنمو الديموغرافي والعمراني في المدينة التي ظلت تعاني من الاثار السلبية للتراكمات التاريخية منذ زوال الخلافة العباسية ١٢٥٨ م / ٦٥٦ هـ .

فبعد ان كانت الاحياء (المحلات) في المدينة تشكل وحدة اقتصادية ـ اجتماعية مكتفية ذاتياً . والمبادلات التجارية تجري ببطء في هذه الاحياء ، اصبحت الاحياء ترتبط اقتصادياً واجتماعياً بالسوق الرئيسي بعد السيطرة العثمانية ، خاصة بعد ان ظهرت القيصريات التي اصبحت الحاجة ماسة اليها ، بعد عودة النشاط التجاري الاقليمي والدولي للموصل[٥] .

ومن جانب اخر ، فان الزيادة في عدد السكان في المدينة تعد مؤشراً اخر على استرداد المدينة لمكانتها الطبيعية ، ففي سنة ١٥٣٩ م اظهر المسح العثماني الاول عدد السكان كان ١٢,٨٨١ نسمة في حين اظهر المسح العثماني الثاني سنة ١٥٧٥ م ١٦,٦٨٤ نسمة اي زيادة مقدارها ٢٥ ٪ ونسبة النمو هذه قليلة نسبياً ، قياساً الى المدن العراقية الاخرى[٦] كما ان السكان في القرن السادس عشر كانوا يتركزون داخل اسوار المدينة ، الامر الذي يشير الى ان الاستقرار النسبي في المدينة لم يكن باعثاً للسكان للانتشار فيما وراء السور سواء كان بطريقة عفوية او نتيجة سياسية حكومية . وان هذا الامر لم يتحقق الا بعد القرن السابع عشر . فالمدينة التي عانت شتى ضروب القهر السياسي والاقتصادي والاجتماعي طوال ثلاثة قرون ١٢٥٨ م ـ ١٥١٦ م تبقى غير قادرة على تجاوز التراكم السلبي التاريخي بمجرد انضمامها الى الدولة التي كانت هي الاخرى تعاني من سلبيات ماضيها ولكن بدرجة اقل من مثيلاتها المعاصرات والسابقات لها .

٣ ـ الرحالة في القرن السادس عشر :

يعد الرحالة العثماني سيدي علي ريس ، اول رحاله يزور الموصل بعد دخولها في السيطرة العثمانية ، عندما كلف بمهمة عسكرية في شمال الخليج العربي سنة ١٥٥٣ م فسلك طريق حلب ـ بيرجك ، رها (اورفه) ، نصيبين ، الموصل ، ويذكر الرحالة عدد الايام التي مكث فيها بالمدينة ، ربما ليوم واحد حيث زار مراقد الانبياء والصالحين ، مرقد النبي يونس والنبي جرجيس ، والشيخ محمد الغرابيلي ، والشيخ فتحي الموصلي ، وقضيب البان ، دون ان يذكر اية معلومات اخرى[٧] .

وفي ٧ كانون الثاني ١٥٧٥ م زار الموصل الرحالة الهولندي راوولف ضمن رحلته الهادفة الى جمع معلومات عن الاعشاب الطبية . ويذكر عن المدينة « ان الشوارع والابنية جميلة وجيدة ، وهي واسعة نوعاً ما ، ولكن اسوارها وخنادقها ضعيفة »[٨] كما جلب انتباه الرحالة وجود مخازن كبيرة للسلع تاتي عن طريق النهر ، حيث يتم نقل مختلف البضائع والفواكه من البلاد المجاورة بطريق النهر والبر الى بغداد[٩] وفي مجال المقارنة بين الموصل وبغداد يقول راوولف ان الفاقة ظاهرة في الاخيرة ، ولولا الاولى فان فاقتها تتعاظم وتزداد ، واشار الرحالة الى وجود نوعين من الفواكه في المدينة من جنس الجوز باحجام كبيرة وصغيرة ، يسميه السكان باسم « البندق » ، كما شاهد الرحالة نوعاً من البطيخ كبير الحجم بقدر قبضتي اليد ، كثير الانتشار هنا ، قيل انه يؤتى به من ارمينيا ، وهو صلب اسمر اللون ، ليس حلو المذاق ، ويحتوي على بذور صغيرة حمراء ، وقد اعتاد السكان على تناوله عند الصباح[١٠] ، وربما كان الرحالة يقصد به البطيخ الاصفر المعروف عند الموصليين عند ذلك الوقت ،

والملاحظة الجديرة بالاشارة هنا هي المغالطة التي يقع بها راوولف اذ يذكر بعبارة ذكية قيل ان اكثرية سكان الموصل من

www.dorat-ghawas.com

النسطوريين الذين يزعمون بانهم مسيحيون ، لكنهم في الحقيقة اسوأ من اية ملة اخرى وانهم لا يمارسون اي عمل سوى ترصد الطرق والانقضاض على المسافرين وقتلهم وسلبهم[١١] .

فمن المعروف ان النساطرة لا يشكلون اكثرية السكان ، بل الصحيح ان المسلمين هم الاكثرية حسب المعطيات الوثائقية العثمانية ، فقد كان عدد السكان في المدينة سنة ١٥٧٥ م ١٦,٦٨٤ نسمة ، من بينهم ٤٨٧٢ مسيحي و ٨٧٠ يهودي اذ ان المسيحيين كانوا يشكلون ١ / ٣ السكان فقط[١٢] ، كانوا يسكنون في محلة نصارى القلعة ومحلة نصارى كركوك (ربما هي المنطقة المجاورة لمار اشعيا) فضلا عن وجود عدد من البيوت المسيحية في المحلات الاخرى مثل محلة باب العراق[١٣] ، وان تصحيحاً بسيطاً لرواية الرحالة يجعل كلامه مقبولًا اذا ما قلت ان النساطرة هم الذين يشكلون اكثرية المسيحيين في المدينة .

ومن جانب آخر ، فان شك راوولف في مسيحية النساطرة وقيام هؤلاء باعمال السلب والانقضاض على المسافرين وقتلهم هو الآخر رأي غير دقيق اذ لا يعقل ان لا يمارس هؤلاء اي عمل سوى النهب والسلب ، وهم من الجماعات المستقرة سواء داخل المدينة او في الحواضر الملحقة بها ، ربما كان لراوولف اسبابه الخاصة لاطلاق هذا الحكم على مسيحيي الموصل ، اذ انه كان على المذهب البروتستانتي Proteston المناوىء للمذهبينم الكاثوليكي والارثودوكس لاعتبارات تتعلق بالاسرار السبعة المسيحية[١٤] . المسيحيين

٤ ـ الموصل في القرن السابع عشر الميلادي :

شهدت الموصل في النصف الاول من القرن السابع عشر تطورات سياسية وعسكرية هامة ، انعكست على اوضاعها العامة ، فبعد حركة بكر صوباشي في بغداد سنة ١٦٢٣ م ، التي ادت الى وقوع العراق في قبضة الصفويين وبقدر تعلق الامر بالموصل ، فقد احتلتها القوات الصفوية قرابة ثلاث سنوات ، لم يظهر الموصليون خلالها اي تعاون مع المحتل الاجنبي واذا كانت المدينة قد تخلصت من الاحتلال الفارسي غير انها تحملت عبأ اخر تمثل في اتخاذها قاعدة عسكرية للحملات الموجهة الى بغداد والتي تمثلت في حملة الصدر الاعظم حافظ احمد باشا ١٦٢٥ ، وحملة الصدر الاعظم خسرو باشا ١٦٢٩ ـ واخيراً حملة السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) سنة ١٦٣٨ م[١٥] اذ كان على السكان المشاركة في هذه الحملات والمساهمة في نفقاتها العالية ، لذا يمكن القول ان المدينة عاشت خلال الفترة ١٦٢٣ ـ ١٦٣٨ م ، اجواء التعبئة والاستعداد العسكري وعدم الاستقرار السياسي يضاف الى ذلك عامل اخر ساهم في زيادة بؤس السكان والذي تمثل في حدوث الكوارث والمجاعات وانتشار الامراض والاوبئة وقد تميزت المصادر سنوات ١٦٤٣ ، ١٦٥٠ ، ١٦٧٣ ، ١٦٧٦ ، ١٦٨٨ كسنوات مجاعة وانتشار الامراض ومجيء الجراد النجدي[١٦]

وقد اظهرت التطورات السياسية والعسكرية السابقة ، اهمية الموصل الدفاعية والهجومية عن الطرق المؤدية الى قلب الاناضول والبحر المتوسط وكنقطة وثوب في المستقبل لجميع الحملات العثمانية المتجهة الى الجنوب وشمال الخليج العربي[١٧] ، كما ان القيادة العثمانية خلال فترة المواجهة العسكرية مع الصفويين ، قد انتبهت الى ضرورة تقوية دفاعات المدينة التي تضررت خلال الهجوم الصفوي على المدينة سنة ١٦٢٣ م ، فقد امر الصدر الاعظم خسرو باشا بعد حملته الفاشلة على بغداد سنة ١٦٢٩ م ، بتعمير مدينة الموصل حيث ارسلت ادوات الاحكام الى والي الموصل بكر باشا الموصلي وسيد خان ، للمباشرة بتوسيع السور حتى اصبحت منطقة ينجه علي في داخله ، كما تم ترميم السور الداخلي وباشر البناؤون من ديار بكر ببناء القلعة الداخلية التي عدت من اعظم القلاع في المنطقة[١٨] .

ان النص التاريخي السابق ، يكشف لاول مرة حقيقة بناء سور جديد في العهد العثماني ، بعد ان كان الاعتقاد السائد ، بوجود سورين فقط هما السور العقيلي والاتابكي ، غير ان الاشارة ببناء القلعة (ايج قلعة) تبقى مثار شك ، اذ لا يعقل بقاء المدينة بدون القلعة الداخلية طوال الفترة ١٥١٦ ـ حتى ١٦٢٩ م ، ربما الذي حصل هو ترميم القلعة ، بحيث ظهرت وكانها بناء جديد .

٥ ـ الرحالة في القرن السابع عشر :

زار الموصل في القرن السابع عشر عدد كبير من الرحالة ، وكانت دوافعهم مختلفة ، من تبشيرية ، الى عسكرية او حب الاطلاع وحب السفر ، وقد رافق السلطان مراد الرابع في حملته الاستردادية لبغداد ، احد الاشخاص ، ربما كان موظفا في الديوان السلطاني فكتب اشبه ما تكون بيوميات لرحلة السلطان ، اذ ذكر معلومات جغرافية ، عن كل منطقة مر بها السلطان سنة ١٦٣٨ م منذ خروجه من العاصمة العثمانية في ٨ مارس (اذار) ١٦٣٨ حتى وصوله بغداد ١٥ تشرين الثاني ١٦٣٨ وبقدر تعلق الامر بالمناطق التابعة للموصل ، ابو سعيد ، منزل « مقابله اسكي موصل » قرية جمال ، قرية قره قويون (القبة) ثم الموصل التي دخلها في ٧ تشرين الثاني ١٦٣٨ م حيث مكث فيها يوماً واحد ، واستقبل فيها سفير الهند ، الذي جاء يعرض على السلطان مسالة الاعتداءات الفارسية على قند هار وقد امره السلطان البقاء في المدينة ريثما يتفرغ من مهمته العسكرية ، ويشير صاحب الرحلة الى وجود خرائب كثيرة في المدينة كما يذكر اسماء القرى في جنوب المدينة « يارمجه ، قيز فخره ، قره تبه ،

www.dorat-ghawas.com

خراب صوبى ، خضر الياس ، الزاب الكبير ، بير داود ثم الزاب الصغير ، التون كوبرى حيث وصلها في ٩ تشرين الثاني ١٦٣٨ م ، وينوه صاحب الرحلة ، بوجود زراعة جيدة في هذه المناطق[١٩] .

ومن الرحالة الذين زاروا الموصل في النصف الاول من القرن السابع عشر اوليا جلبي المعروف بابن بطوطة الاتراك ، كانت الزيارة الاولى سنة ١٦٤٨ م والثانية في فترة ولاية مرتضى باشا الثانية (١٦٥٩ - ١٦٦١ م) والي بغداد[٢٠] ، وتضم رحلة اوليا جلبي معلومات مفيدة عن اوضاع الموصل الادارية والعمرانية والاجتماعية ، يقول عن قلعة الموصل انها على شكل مخمس ، وبناؤها جيد ، وقد حضر اثناء وجوده في المدينة الاحتفال الكبير الذي اقيم في جامع النبي جرجيس بمناسبة ليلة الاسراء والمعراج الذي يقام عادة شهر رجب ، كما زار مرقد النبي يونس والجامع الملحق به . والخان والزاوية الخاصة بالدراويش ، ثم قصد ناحية منارة في شمال المدينة[٢١] والتقى بعدد من اليزيدية في المنطقة والملاحظة الملفتة للنظر هي ، الموقف السلبي لاوليا جلبي من اليزيدية ، وذكره عادات وتقاليد خاصة بهم باسلوب ساخر[٢٢] وقد ذهب صديق الدملوجي الى الاعتقاد ان الرحالة تقصد في ذكر هذه الاخبار حتى يقال عنه انه جاء باخبار طريفة لم يسبقه اليها احد من قبل[٢٣] . في حين يرى خليل علي مراد ، ضعف هذا الرأي ، وفي اعتقاده ان رواية الرحالة هي محاولة لتبرير حملة عثمانية قاسية قادها ملك احمد باشا والي بغداد (١٦٤٨ - ١٦٥٠ م)[٢٤] .

ومع الاخذ بنظر الاعتبار وجاهة هذا الاعتقاد ، غير ان المسالة في اعتقادي تندرج في اطار موقف الدولة العثمانية من هذه الطائفة واعتبارها طائفة غير موالية لها ، وان وصف اوليا جلبي لهم بالصورة التي نوهنا عنها انماهو انعكاس لهذا الموقف وتاكيده عليه .

وانطباعات الرحالة الاوربيين تكتسب اهمية خاصة ، لانها تلقي الضوء على الوضع العمراني للمدينة ، فتافرنيه الذي وصل الموصل سنة ١٦٤٤ م يذكر « ان المدينة تبدو فخمة من خارجها باسوارها الحجرية بينما في داخلها تكاد تكون برمتها خربة ، وليس فيها سوى سوقين معقودتين وقلعة صغيرة مطلة على دجلة يقيم فيها الباشا »[٢٥] غير ان تافرنيه يؤكد ان الموصل لا تزال تحتفظ باهميتها التجارية حيث يلتقي فيها التجار من مختلف الاجناس وان تجارة العفص رائجة غير ان المدينة تعاني من نقص في عدد الخانات وليس فيها غير خانين صغيرين ، كانا مكتظين بالمسافرين حين وصل الرحالة الى المدينة ، مما اضطر ان ينصب خيمته في الميدان (السوق الكبير)[٢٦] .

وفي سنة ١٦٥٦ م وصل الموصل الرحالة الايطاليفنشنسو ماريادي سانتا كاترينا وهو في طريقه الى الهند الشرقية في مهمة تبشيرية ، اذ كان يشغل منصب وكيل الكرمليين الحفاة ، وكان وصوله لها في فجر ١ آب ١٦٥٦ م وبعد انتظار غير طويل فتحت ابواب المدينة ، فنزل في احد خاناتها ، يقول عن الموصل«انها مدينة صغيرة ، ضيقة المسالك ، فقيرة المنازل ليس فيها ما يلفت النظر سوى قلعتها حيث يوجد عدد كبير من الجيش الانكشاري ، ويحيط القلعة سور فيه مداخل للدفاع ضد الهجمات .... والامر الذي لفت نظر الرحالة كثرة المدافع على السور وهي مطمورة الى نصفها في الارض ، ولم تكن مجهزة بعربات بل كانت مهملة كلياً »[٢٧] الامر الذي يشير الى ان المدينة خلال مرحلة المواجهة العسكرية مع الايرانيين ١٦٢٥ - ١٦٣٨ م قد اصبحت مدينة عسكرية ظلت متحفزة للدفاع عن نفسها « ووضعت عدد من المدافع عند الابراج ، ووجهت فوهتها باتجاه السهول المنبسطة امام المدينة »[٢٨] .

وينوه الرحالة برخص الاسعار في المدينة بحيث تكاد تكون بخسة فالشاة الواحدة تباع باربع شاهيات (التي تعادل اربع قطع بوليه رومانية) والبقرة الواحدة لا يزيد سعرها عن قطعتين ابو شلبي (تالير ، نقد الماني من الفضة) ، في حين كان سعر الحصان بين اثنتي عشر قرشاً او خمسة عشر قرشاً في حين يباع هذا الحصان في اوربا بخمسين او ستين دينار كما ان اسعار الفواكه والخضروات في غاية الرخص ، فقد اشترى هو حملًا كبيراً من الفواكه باقجة واحدة فقط[٢٩] .

في الواقع ان رخص الاسعار لا يرجع الى قوة العملة العثمانية كما يفهم ، بل الى ندرة العمل ، فضلًا عن شيوع ظاهرة الشراء والبيع بالمقايضة . ويشير الرحالة الى ان الموصليين ينامون ليلًا فوق السطوح ، وفي النهار يمضون الوقت في السراديب ، هرباً من المناخ الحار الذي لا يطاق في شهر آب ، ومهما يكن من امر ، فقد غادر الرحالة الموصل باتجاه بغداد سالكاً طريق غرب دجلة[٣٠] .

ومن ابرز الرحالة الذين زاروا الموصل الموسينور سبستياني الذي اوفد هو الاخر في مهمة تبشيرية الى الهند الشرقية ، فقد كانت الزيارة الاولى للمدينة في اب ١٦٥٦ م حيث جاء مرافقاً لقافلة عثمانية تعرف بالخزنةCasne خرجت من حلب قاصدة بغداد ، وهي تحمل رواتب الانكشارية للربع الاخير من سنة « لذ »[٣١] . يقول عن المدينة انها مدينة كبيرة ، لكنها لا تقاس عظمة بالنسبة الى نينوى ، وان آل عثمان مسؤولون عن الخراب الذي حل في كل الاصقاع التي قربها خلال سفره ، فلم يجد « مدينة تستحق الاعتبار الا حلب ، ويرجع الفضل في كون حلب جميلة ومنظمة الى وجود الافرنج فيها »[٣٢] ، وهو امر يلفت النظر في ربط تقدم حلب بالافرنج ، ولكنه يعبر عن موقف المبشرين من الشرق الذي يبقى غير قادر على تجاوز التخلف الا بمساعدة الغرب . كما يقدم الرحالة معلومات غير قابلة للتدقيق عن عدد

www.dorat-ghawas.com

المسيحيين في المدينة خاصة من هم على المذهب الارثوذكسي[٣٣] الذين « بالامكان اعادتهم الى احضان الكنيسة الغربية اذا ما رجع الاباء الكبوشين مرة اخرى الى الموصل »

لقد غادر الرحالة المدينة في ٤ اب ١٦٥٦ م بعد ان مكث فيها اربعة ايام عانى خلالها من المناخ الحار الذي لا يطاق في المدينة في شهر مثل اب وكانت وجهته مدينة بغداد حيث قصدها عن طريق غرب دجلة[٣٤] .

وفي رحلته الثانية التي بدأت من روما في ٧ شباط ١٦٦٠ م باتجاه سوريا (حلب ـ ماردين ـ الموصل حيث وصلها في ٣ تشرين الاول ١٦٦٠ م ويشير الرحالة انه اسرع في دخول المدينة قبل حلول الظلام حيث تقفل ابواب المدينة ، ولتحقيق هذا الهدف ترك القافلة قبل وصولها الى المدينة اما الذين تاخروا مع القافلة فقد اضطروا الى المبيت خارج السور ، فقد هجم عليهم الاكراد في تلك الليلة وكبدوهم خسائر تقدر بـ (٥٠٠) فرش[٣٥] .

وقد مكث الرحالة في هذه الزيارة في المدينة قرابة عشرة ايام ، واهم ملاحظة تركها عن المدينة في هذه الزيارة هي ذكره تلك الاحتفالات الكبيرة التي تسمى باحتفالات الزينة وباللغة التركية طونتما ، حيث اوقدت المشاعل في ليال متتالية وتم تجميل سوق البزازين ، ابتهاجاً بانتصارات عثمانية في الجهات الاوربية ، ويقول الرحالة انه اقترب من احد الجنود ربما كان انكشارياً وساله عن الدافع لهذه الاحتفالات ، فقال انها مجرد ابتداع وإشعار للايرانيين بمدى قوة العثمانيين وقدرتهم على هزيمتهم في حالة اقدامهم على مهاجمة حدود الدولة العثمانية .[٣٦]

ومهما يكن من امر . فقد غادر سبستياني المدينة في ١٠ تشرين الاول ١٦٦٠ م عن طريق نهر دجلة على ظهر كلك .

وفي زيارته الثالثة للمدينة في طريق عودته من بغداد سنة ١٦٦٤ م حيث وصلها في ١٣ تشرين الاول ، يترك الرحالة ملاحظة تاريخية عن المدينة لا تخلو من مبالغة ، اذ يقول « كانت المدينة مقفرة من السكان ، فطرقات عديدة بدون سكان ، وابواب الحوانيت مقفلة ، كما علم ان التجار واهل الصنائع تركوا اعمالهم وهربوا الى كردستان ، تخلصا من دفع الضرائب الباهضة ، التي فرضها العثمانيون لمواجهة متطلبات الحرب مع ايران »[٣٧] .

وفي الوقت الذي كان السكان يعانون من عبء الضرائب والرسوم ، كانت السلطات العثمانية المحلية تستعد لاستقبال الوالي بغداد الجديد ابراهيم باشا الطويل ، فقد كان في انتظاره في الموصل احمد باشا اذ خرج خارج السور بمسافة قدرها رحالة بميل واحد ، ومعه عدد كبير من الانكشارية والموظفين الرسميين ، ومنظر الاستقبال يلفت النظر كما يقول الرحالة ، الجنود بزيهم الرسمي على ظهر الخيول ، ورايات تتقدم مواكب المستقبلين ، وطبول وابواق وازياء غريبة تلوح في المكان ، اما تخت الوالي فعبارة عن وسادة واحدة مغطاة بقماش قرمزي من النوع العادي ، وهي ثابتة تحت قضبان المحمل ، وعند وصول الوالي الجديد الى المدينة اطلقت المدفعية المثبتة اعلى السور عدد من القبرات الحديدية وبواقع طلقتين ، لم تكونا قوية جداً ، ويعزو الرحالة ذلك الى جهل الجنود لفن الاطلاق ، ربما خوفهم ايضاً من صوت المدفع .

وكانت مغادرة الرحالة للمدينة يوم ١٧ تشرين الاول ١٦٦٤ م باتجاه مدينة الرها (اورفه)[٣٨] .

اذا كان الرحالة الذين مر ذكرهم في اعلاه قد زاروا المدينة بدوافع تبشيرية فقد كانت دوافع الرحالة ثيفنو ذاتية بحتة ، فلم يكن الرجل راهباً او رجلاً دبلوماسياً ، بل كان مغرماً بالشرق وسحره ، ويشعر بلذة عظيمة عند احتساء ذاك المشروب الاسود الحار « القهوة »[٣٩] .

لقد وصل الرحالة الموصل سنة ١٦٦٤ م ودخلها عن طريق « باب بغداد » الكائن في جنوب المدينة ، ربما قصد بذلك باب العراق ، بعد ان دفع قرشاً للجنود الانكشاريه . وحل ضيفاً على الاباء الكبوشيين ، الذين كانوا يقدمون خدمة طبية مجانية للسكان دون تمييز ، ويحظون باحترام الجميع وتقديرهم لما يقومون به[٤٠] .

ولعل الوصف الذي يقدمه ثيفنو عن قلعة المدينة ، لا يزال ادق وصف ، اذ يقول : « فالقلعة الداخلية التي تمتد مع النهر ، وهي على شكل بيضوي ، بنيت الواجهة المطلة على النهر بحجارة منحوتة ، ويرتفع السور المحدق بها حوالي ستة امتار اما من جهة اليابسة فهي منفصلة عن المدينة بخندق عميق جداً عرضه عشرة امتار او اكثر ، وبوابة القلعة في وسط برج جسيم مربع الشكل مشيد فوق قنطرة كبيرة ، يجري من تحتها ماء الخندق ، وهناك جسر متنقل لا بد من عبوره الى البوابة »[٤١] ، غير ان رواية الرحالة « قيل ان هذه القلعة كانت قد بنيت من قبل المسيحيين ، وان فيها كنيسة جميلة »[٤٢] ، تبقى مثار تساؤل لان المصادر لا تشير الى وجود كنيسة اصلاً في القلعة ، ربما قصد الرحالة بذلك الجامع المجاهدي الذي يعرف باسم الجامع الاحمر او الاخضر[٤٣] .

ومن جانب اخر يقول ثيفنو ان نهر دجلة اعرض بقليل من نهر السين (في باريس) وهو عميق الغور ، وسريع الجريان ، ولا يمكن اقامة جسر من القوارب قرب القلعة المذكورة ، بل تحتها بقليل ، وذلك مقابل احد ابواب المدينة المسمى « جسر قابيس » اي باب الجسر ، ويتالف من حوالي ثلاثين قاربا ، يعبر عليه الى جزيرة صغيرة ، ونهايته الثانية لا تتصل بالارض مباشرة ، بل هناك جسر صخري طويل طول الجسر يتصل به ، ان هذا الجسر

www.dorat-ghawas.com

القائم على القوارب يرفع في الشتاء نظراً لازدياد مياه النهر ، اذ يبلغ عرض النهر في هذا الفصل ضعف عرضه في الصيف[٤٤] .

ومن سوء حظ الرحالة ، فان الحر الشديد منعه من زيارة النبي يونس (ع) لانه لا يمكن الخروج من البيت بعد بزوغ الشمس بساعتين وحتى غروبها بساعة على الاقل ، حتى وان غطى الانسان رأسه بقطعة قماش ، وكان الرحالة نفسه يغطي رأسه بقطعة من القماش الاسود ، الامر الذي كان يؤدي الى التهاب جبينه واتخاذه لونا احمر[٤٥] ، ربما كان ثيفنو يجهل ان اللون الاسود لا يعكس مثل اللون الابيض ، اشعة الشمس بل يحتفظ بها « ليزيد الطلة بلة كما يقال »

صادف اثناء وجود الرحالة في المدينة حدوث خسوف القمر في ٧ اب وقد ابتدأ في منتصف الليل بساعة ودام حتى الرابعة صباحاً ، وكان منظر ذلك الكوكب احمر كالدم خلال المدة كلها . ويشير الرحالة ان سطوح البيوت قد امتلأت بالناس طوال المدة التي دام فيها الخسوف ، وكانوا يضربون العصي على القدور ، وكل ذلك من اجل تخويف حيوان مهول (الحوت) يهم بابتلاع القمر حسب اعتقادهم[٤٦] . وهو اعتقاد شرقي قديم ، لا يقوم على اساس علمي ، ويبدو ان العقل البشري ابتكر هذا الاعتقاد عندما عجز عن تفسير هذه الظاهرة الطبيعية فكان هذا التفسير الذي يتسم بطابع خرافي لا تزال آثاره باقية الى اليوم عند بعض الشعوب .

ان الرحالة الذي امضى في المدينة اياماً غير قليلة ، ووقف على وضعها العمراني وبعضاً من معتقدات اهلها ، قد غادرها في ٨ اب ١٦٦٤ م حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، وعلى ظهر كلك قاصداً بغداد ، وكاد ان يفقد حياته في احدى مفاجاة الطريق النهري ، غير ان ما كان يخفف خوف الطريق النهري ما شاهده من حيوانات غريبة من وحوش وخنازير ، وغابات مليئة بالاسود[٤٧] ، خاصة المنطقة بين حمام علي وحاوي خرتمية « قيزيل خان » بين تكريت والبلاليق للذاهب الى بغداد .

وفي ضوء ما سبق ، تستطيع القول ان روايات وملاحظات وانطباعات الرحالة الذين زاروا الموصل في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد ، تشكل حقلًا خصباً للمعلومات التي تخص تاريخ الموصل الاجتماعي والاقتصادي والعمراني وتمد الباحث بفيض من المعلومات اذا ما استخدمت استخداماً علمياً بالمقارنة مع المصادر المحلية والحوليات والوثائق العثمانية ، فانه بالامكان الوصول الى تصورات تاريخية اقرب الى الدقة عن تاريخ الموصل الاجتماعي والاقتصادي الذي لم يدرس لحد الان دراسة اكاديمية بعيدة عن الانحياز واطلاق بعض الاحكام غير الدقيقة التي تتلمسها في بعض الدراسات المعاصرة . ولتحقيق هذا الهدف ، يرى الباحث ان مركز دراسات الموصل ، وفي اطار نشاطه العلمي والتاريخي ، مطالب بتوفير كتب الرحلات ، والمباشرة بترجمة المسائل التي تخص المنطقة الشمالية في العراق ، ووضعها في متناول ايدي الباحثين ، وبذلك يكون قد حقق جانباً من الهدف الذي من اجله تأسس المركز في الجامعة .

الهوامـــش والمصـــادر :

١ ـ تكتسب معلومات الرحالة عن الموصل في القرن السادس عشر والسابع عشر للميلاد اهمية خاصة لقلة المصادر المحلية عن المدينة في حين تبقى معلومات الرحالة في القرون التالية مجالا للمقارنة مع المعلومات الواردة في المصادر الموصلية المحلية خاصة المدونات العمرية ، للوقوف على اسماء الرحالة في الفترات الثلاثة انظر :

F . J . M . Fiey , mossoul da vant 1915 vue paries voyageura eterangers ,

مجلة سومر (بغدادية) جـ ٢ ، ١٩٤٦ .

ص ص ٣٢ ـ ٣٤ ، كما تضم قائمة س . هـ . لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق ترجمة ، جعفر الخياط ط ٤ . بغداد ١٩٦٨ . ص ص ٣٩٧ ـ ٤٠٨ اسماء الرحالة الذين زاروا العراق منذ سنة ١٥٥٣ م حتى ١٩١٣ م .

٢ ـ للتفاصيل انظر : علي شاكر علي ، ولاية الموصل في القرن السادس عشر . دراسة في اوضاعها السياسية والادارية والاقتصادية ، اطروحة دكتوراه ، كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٢ م ص ص ٤٨ وما بعدها .

٣ ـ المصدر نفسه ص ص ١٠٥ ـ ١١٩ .

٤ ـ Dina Rizk Khoury , Iraq cities during the early ottoman period , mosul and Basra . P . 48 .

المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العددان الخامس والسادس ، فيقرى (زغوان ١٩٩٢) ص ٥٣ .

٥ ـ علي ، ولاية الموصل ص ص ١٧٥ ـ ١٧٨ .

٦ ـ Khoury , op . cit . P . 54 .

٧ ـ سيدي رئيس ، مرات الممالك . طابع وناشري ، احمد جودت . اقدام مطبعة س ١٣١٣ هـ ص ١٤ .

٨ ـ ليونهارت راوولف ، رحلة المشرق الى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة سليم طه التكريتي ، (بغداد ، ١٩٧٨) . ص ٢٠٣ .

٩ ـ المصدر نفسه ص ٢٠٥ .

١٠ ـ المصدر نفسه ص ٢٠٦ .

١١ ـ المصدر نفسه

١٢ ـ Khoury . op . cit . P . 48 .

١٣ ـ علي ، ولاية الموصل ، ص ١٣٤ .

www.dorat-ghawas.com

١٤ ـ لمزيد من التفاصيل انظر : عبد الحميد البطريق ، عبد العزيز نوار ، التاريخ الاوربي الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فينا (بيروت ، ١٩٧٤) ص ص ٨٦ ـ ١١٥ .

١٥ ـ للتفاصيل انظر : علي شاكر علي ، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ ـ ١٧٥٠ م ، (بغداد ، ١٩٨٥) ص ص ٤٥ ـ ٥٩

١٦ ـ عن هذه الكوارث والامراض انظر : ياسين خير الله العمري ، منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق ، سعيد الديوجي ، (الموصل ، ١٩٥٥) ص ١٧١ ـ وما بعدها .

١٧ ـ روبرت ديليو اولسن ، حصار الموصل والعلاقات العثمانية الفارسية ١٧١٨ ـ ١٧٤٣ ترجمة ، عبد الرحمن امين الجليلي ، (السعودية ، ١٩٨٣) . ص ٨١ .

١٨ ـ مصطفى نعيما الحلبي ، تاريخ نعيما او روضة الحسين في اخبار الخافقين ، القسطنطينية ١١٤٧ هـ . جـ ١ . ص ص ٥٠٠ ـ ٥٠١ .

١٩ ـ Halil Shailli oglu, Dorduneu murdin Bagdad seferi menzil namesi (Bagdad seferi harp jumuli) Turk tarihi Belgeleri Dergisi (Ankara , 1967) . PP . 25 — 26 .

٢٠ ـ للوقوف على السيرة الذاتية لهذا الرحالة واهمية رحلته في تدوين تاريخ العراق الحديث انظر : خليل علي مراد « حملة اوليا جلبي مصدراً لدراسة احوال العراق في القرن السابع عشر » بحث مقدم الى مجلس قسم التاريخ ، كلية التربية ، جامعة الموصل لسنة ١٩٩٥ .

٢١ ـ اوليا جلبي محمد ظلي درويش ، اوليا جلبي سياحتنامه س ، طابعي احمد جودت اقدام مطبعة س ، اسطنبول ١٣١٥ هـ . جـ ٥ ، ص ٧ .

٢٢ ـ المصدر نفسه .

٢٣ ـ اليزيدية ، (الموصل ، ١٩٤٩) ص ٣٨٤ .

٢٤ ـ خليل علي مراد ، اوليا جلبي ، ص ٩

٢٥ ـ جان باتيست تافرنيه . العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد . (بغداد ، ١٩٤٤) ، ص ٥٨ .

٢٦ ـ المصدر نفسه ٥٩ سوق الميدان تمتد بموازاة دجلة من مشرعة شط القلعة (الداخلية) حتى المكان الذي نصب الجسر الحديدي فيما بعد (شيد سنة ١٩٣٣ م) .

٢٧ ـ رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الايطالية ، د . بطرس حداد ، مجلة المورد (بغدادية) العدد الثالث لسنة ١٩٧٦ ص ٧٢ .

٢٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

٢٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

٣٠ ـ لنذ : مختصر لاشهر شوال ، ذي القعدة ، ذي الحجة حيث كانت رواتب الانكشارية توزع كل ثلاثة اشهر باربعة اقساط سنوية اعطى لكل قسم اسم مركب من ثلاثة احرف من احرف الاشهر الثلاثة للقسط وهي :

مصر = محرم ، صفر ، ربيع الاول .

رجج = ربيع الثاني ، جمادى الاول ، جمادى الثانية (الاخرة)

رشر = رجب ، شعبان ، رمضان .

لنذ = شوال ، ذي العقدة ، ذي الحجة ، والقافلة التي خرجت في شهر رمضان من حلب كانت تحمل رواتب (علوفة) اشهر لنذ ، فقد كانت الولايات تتحمل احياناً دفع رواتب بعضها البعض ، ففي سنة ١٦٦١ م / ١٠٧٢ هـ ارسلت ولاية بغداد قسط مصر لانكشارية حلب . للتفاصيل انظر : خليل علي مراد ، تاريخ العراق الاداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني ١٦٨٣ ـ ١٧٥٠ . رسالة ماجستير ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٥ . ص ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

٣١ ـ رحلات سبستياني الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمها عن الايطالية وعلق عليها بطرس حداد ، مجلة المورد ، المجلد التاسع / العدد الثالث ١٩٨٠ ، ص ١٦٧ .

٣٢ ـ رحلات سبستياني ، ص ١٧٥ .

٣٣ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٦ .

٣٤ ـ المصدر نفسه ص ١٩٧ .

٣٥ ـ المصدر نفسه

٣٦ ـ المصدر نفسه . ٢٠٣ .

٣٧ ـ المصدر نفسه ٢٠٣ .

٣٨ ـ « مقتطفات من رحلة ثيفنو الى العراق (القرن السابع عشر ، » ترجمة بطرس حداد ، مجلة بين النهرين ، السنة الثانية ، العدد الثامن ، ١٠٧٤ . ص ٣٨٧ .

٣٩ ـ المصدر نفسه ص ٣٨٨ وعن ابواب الموصل وتسميتها انظر : احمد علي الصوفي : تاريخ بلدية الموصل . الموصل ١٩٧٠ ، جـ ١ ، ص ص ٥ ـ ٦ .

٤٠ ـ المصدر نفسه ٣٨٩

٤١ ـ المصدر نفسه

٤٢ ـ انظر وصفاً لهذا الجامع وعرضا تاريخيا له في : سعيد الديوجي ، جوامع الموصل في مختلف العصور ، (بغداد ، ١٩٦٣) . ص ص ٥٦ ـ ٥٧ .

٤٣ ـ مقتطفات من رحلة ثيفنو . ص ٣٨٩

٤٤ ـ المصدر نفسه ٣٩٠ .

٤٥ ـ المصدر نفسه ص ص ٣٩٠ ـ ٣٩١

٤٦ ـ المصدر نفسه ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ .

٤٧ ـ المصدر نفسه ص ٤٠٤ هامش رقم ٢٣ للمترجم .

www.dorat-ghawas.com